الحزن المجنّح ف

بقلم : د. عاطف بهجات*
مصر

عرفت الشاعر الدكتور عبده بدوي مع التحاقي بالجامعة في مطلع الثمانينيات عندما كنت أجري بحثا في الأدب الجاهلي، ونصحني أستاذي بقراءة كتاب(الشعراء السود) للدكتور عبده بدوي. ثم توثقت علاقتي بكتاباته من خلال مجلة (الشعر) في إصدارها الثاني، إلى أن حانت فرصة اللقاء به، عندما كنت أدرّس الأدب العربي الحديث بجامعة مصر الدولية في أواخر التسعينيات من القرن الماضي، وشرفت بزمالته في التدريس،وما أجملها من فرصة جمعتني بقامة أكاديمية باسقة، وذات إبداعية عملاقة، وشخصية هفهافة رقيقة مثل زهرة البنفسج تهب الجمال للطبيعة،وتخفي حزنها عن الآخرين،أو أراني وجدته وجها يضحك و قلبا يدمع.

تكرّم عليّ الرجل. وأهداني كل إنتاجه إبداعا،ومعظم إنتاجه تأليفا. وكانت إهداءاته لا تقل رقة عن شخصيته:(العزيز الدكتور الزميل عاطف بهجات تحية لأيام قضيناها و سنقضيها معا.. في زمن آمل أن يكون سعيدا. مع التحايا.....).

كان هذا الإهداء لكتابه - بالاشتراك- (نصوص أدبية). ولم يكن قد مر على لقائنا إلا أيام قلائل. وينعتني بالعزيز،ويخاطبني بالدكتور، وما أقصر قامتي بجوار قامته. ومع أنه لم يدّرس غير الفصل الذي جمعني به،امتدت علاقتنا، وصارت صداقة حميمة إلى أن تركنا في عالم الأحزان وذهب إلى جنة السعادة- إن شاء الله.

وعندما قرأت مؤلفاته لفتني حزنه: عندما كان طفلا، وعندما تخرج من الجامعة. وعندما عمل بوزارة الثقافة و الجامعة، وعندما سافر أيضا. وقد سجل ذلك طي كتابه : (تجارب وتطبيقات في الشعر).

كذلك عندما تقرأ شعره يرد إلى خاطرك ما قاله صلاح عبد الصبور في

قدري موتي
كلماتي قاسية
تقتل
شمسي لا يحملها
رأس ناعم
وثماري لا تعطي
وجها نحو الأرض
وغنائي لا يشجي
غير الواصل
ودمائي من قدم
خمر الظالم
وشفاء المكروب

عبده بدوي

* أستاذ الأدب الحديث و النقد المساعد بجامعة عين شمس بالقاهرة، وكلية المعلمين بالطائف.

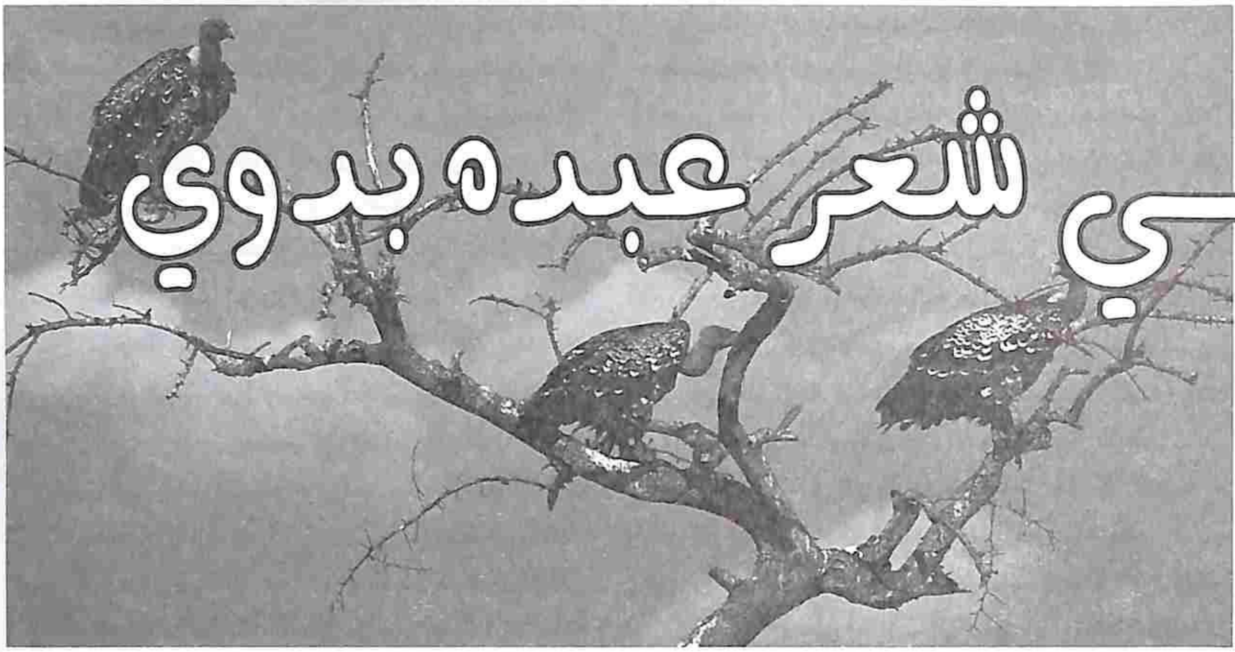

قصيدة (الحزن) :

الحزن قد قهر القلاع جميعها و سبى الكنوز،

الحزن قد سمل العيون،

الحزن قد عقد الجباه

فعبده بدوي يتواءم- نفسيا- مع صلاح عبد الصبور في سيطرة الحزن على كل منهما، وإن كان حزن عبد الصبور يأخذ مسحة صوفية، فحزن عبده بدوي يأخذ مسحة رومانسية تتجلى في محاولة الهروب من الواقع، واستخدام المعادل الموضوعي،والنزعة الإنسانية المتمثلة في الحزن من أجل الإنسان؛ولعل ذلك ما جعله يهتم بقضايا التحرير في إفريقيا.

ولقد تعرض بدوي لمواقف حزينة- على مدار حياته- تغلب عليها بالإنجاز،وكان الشعر –على حد قوله- كريما معه ففزر إنتاجه في لحظات حزنه بما يشبه رد الفعل للصدمات الانفعالية. وما أشبه بدوي بالفنان العالمي(فان جوخ) الذي كان «يجد صدا مستمرا ودائبا من بنات حواء اللائي أحبهن،فكان ينكب على الرسم مستهلكا طاقته العصبية،وقد عمد إلى تخيّر موضوعات معينة تحت تأثير تلك الصدمات الوجدانية التي كانت تصادفه في حياته».

ما أكثر حالات الحزن والانثلام في حياة عبده بدوي،ولقد كان هذا الحزن هو المحرك الأول لإبداعه الشعري الغزير،كما تسرب إلى دواوينه من العنوان إلى الخاتمة. ولعل هذا الحزن يرجع إلى ما عاناه من اضطهاد وعنت في ستينيات القرن الماضي؛ عندما أغلقت المجلات التي كان يعمل بها،وأجبر على لزوم بيته ليقبض راتبه دون عمل يمارسه: فاستشعر ضيق الحياة من حوله،وهذا ما دفعه إلى أن يصدر ديوانه (كلمات غضبى) بقصيدة ذات عنوان دال هي قصيدة (الثقب). وفيها يقول:

لو ألقى ثقبا من إبره

لو أمكث حينا في هذا الثقب

فالدنيا ضاقت حتى أني لا أتنفس

حتى أني لا أنقل خطوي من خلف أو قدام

لو تخطو أقدامي أتجاوز هذي الدنيا

فالحزن قيده،وأفقده القدرة على تجاوز الأشياء ؛لأنه ثابت في مكانه لا يتحرك، فقال:

حياتي موضع قدمي

وحدودي تلك الأظفار العشرون.

وهكذا جعل منه الحزن إنسانا يتعادل داخله الوجود و العدم،الثبات و الحركة، كما صار سجين قدميه المقيدتين اللتين خالفتا طبيعتهما، وصارتا علامة على الثبات و السكون بدلا من الحركة والانطلاق.

لقد تمكن المفهوم الرومانسي للأدب من بدوي، حيث يفترض الرومانسيون كون الأدب «تعبيراً عن النفس،وعن شخصية الكاتب،وتجربته في العالم كما عرفه، أو كما

يراه.فالأدب الرومانسي أدب يكتبه صاحبه ليعبر عن نفسه، ولا يكتبه ليصور الحياة»·وهذا ما كان يحدث مع بدوي، فقد كان الشعر بمثابة الملجأ و الملاذ عندما تضيق به السبل،أو تلم به الأحزان·فهو يرى –كما يرى الرومانسيون– أن جوهر الفن الأدبي التعبير عن النفس؛إذ يعبر فيه الكاتب عن ذاته، ويستقي مادة أدبه من فكرته الشخصية عن الحياة·كما أن الهموم و الأحزان هي الركيزة المختزنة عند الأديب «وينبني عليها ما قد يحس به من هزة فرح،ونشوة سرور في المواقف التي يستشعر فيها الفرح والسرور. فالأصل إذن في الإبداع الأدبي و الفني هوالحزن و ليس الفرح»·

لقد كان إحساسه بالحزن عارما،أو لنقل– بلغة الرومانسيين–: إن حزنه كان حزنا مجنّحا كخيال الرومانسيين،ونرى ذلك عنده من خلال دلالات: لونية ـ صوتية ـ حركية، كأنها دفقات حزن تتنوع بتنوع الدلالات والأساليب·

صلاح عبدالصبور

الدلالات اللونية

تشكل الألوان مساحة شائكة عند الرومانسيين؛ لأنهم يرون مزاوجة وجدانية بينهم و بين الألوان،كما يرون فيها معبّراً عن حالتهم المزاجية والشعورية·فاللون في الشعر– كما يقول يوسف نوفل في دراسته للرمز اللوني عند صلاح عبد الصبور–«يعني الصدق في الحكم وفي محاورة الأشياء،وفي إحياء التجربة الشعرية،ثم استحيائها والعيش فيها؛لأن اللون لا يأتي لوظيفة زخرفية جمالية محض، بل لهدف نفسي يثري التجربة و المعنى»·

نستجلي ذلك في شعر عبده بدوي عندما نراه يوظف الألوان: الأحمر– الأصفر– الأخضر– الأسود في شعره·وهي ألوان صريحة في معظمها،وذلك أمر يشي بصراحة بدوي،وحزنه الدفين الذي نلمسه عندما يوظف اللون الأسود في قوله :

لا تبعد وجهك عن وجهي الأسمر
لا تبحث عن رمز في قلب الأسطر
أو تنكرني إن يذكر إنسان من اسمي حرفين
وترى مرفوع الحاجب و الكتفين
·· وسؤال لا يتجاسر أن يمشي فوق الشفتين
من أي بلاد قد بدأ الرحله؟
وبأي لغات الدنيا سيحدثنا هذي الليله؟

فبدوي هنا قد وظف اللون الأسمر؛ ليعبر عن البيئة والإنسان العربي،الذي يغلب عليه هذا اللون. وهو– كما يقول ابن منظور–« منزلة بين البياض و السواد يكون في ألوان الناس و الإبل، وغير ذلك··».

لقد جاء هذا التوظيف خلال سياق خطابي يتجه نحو الآخر: يحاوره و يواجهه،يمد إليه جسور الود و المحبة،في حين ينكره الآخر،ويقابله بشيء من الامتعاض وتقطيب الجبين والسخرية المكتومة، المتمثلة في أسلوب الاستفهام المتكرر·وما أشار إليه بدوي يعد من مثيرات الحزن خاصة إذا كنت تسعى نحو إنسان ينكرك،وينكر عليك حق التعبير عن نفسك·

ونلاحظ أن ذات الشاعر ذات عربية،وحزنه حزن عربي. وجاء توظيف اللون الأسمر ليعبر عن وجوب المساواة بين الناس – على اختلاف ألوانهم– · ولعل ذلك يستدعي إلى أذهاننا ما قاله إيليا أبو ماضي في قصيدة (الطين):

يا أخي لا تمل بوجهك عني
ما أنا فحمة ولا أنت فرقد

وفي ثنائية رومانسية يمزج فيها بين توظيف اللون و استخدام المعادل الموضوعي، يتخذ من الغراب رمزاً للحزن في قوله:

كنت ألقاك لماماً
في الحياة العربية
فأشيح الوجه . والقلب – عن الوجه الكئيب
و الخوافي الملتويه
وأحس الغربة السوداء،والبغض الماطل،
وبأني سوف أنفى من بلادي، والسنابل،
ومن النظرة في المرآة بالوجه المقابل
ومن الأطفال ترنو و تسائل
-غير أنّي- والليالي حول عمري دائرات كالسلاسل
كنت ألقيك بعيداً و أناضل»

والغراب – كما يقول الدميري في «حياة الحيوان»– (سمّي بذلك لسواده، ويكنى بأبي الشؤم، والعرب تتشاءم بالغراب : ولذلك اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب و الغريب)،ولعل هذا يفسر اختيار بدوي للغراب؛ فهو معادل لما يستشعر من حزن، وما يرى من سواد في الحياة·وقد وصل به الأمر أن يرفض نفسه، أو ينفي داخل ذاته عندما لا يستطيع أن ينظر في

المرآة. كما يسوّي بين حزنه و غربته من خلال اللون الأسود؛ لأن العرب- كما يقول الدميري-لا ترى فرقاً بين الغربة والسواد.

وشيوع الحزن لا يعني الاستسلام، ولكن بدوي يحاول جاهداً أن يتغلب على حزنه عندما يقول:

كنت ألقيك بعيداً و أناضل

....

غير أنّي رغم هذا

سوف أبقى – يا غراب البين- وحدي

و أقاتل !!

ورغم أن بدوي يحاول أن ينتصر على هذا الغراب – غراب البين- إلا أن الغراب يعيش داخله ؛ لأنه يجسد حزنه، وحزنه جزء من ذاته. كما أن غراب البين- كما يقول المقدسي في «كشف الأسرار في حكم الطيور و الأزهار» -:(هو غراب أسود ينوح نوح الحزين المصاب ...).

الدلالات الصوتية

تتجاوز اللغة – عند الرومانسيين- التعبير إلى الإيحاء والإشعاع معوضة ما قد يراه البعض من نقص في المضمون- أحياناً- ،فالمضمون عندهم كلٌّ متآلف من المعنى و الإيحاء؛ ولعل هذا ما يجعلهم يستخدمون الإيحاءات- على اختلافها- لونية أو صوتية.

يتجلى ذلك عند عبده بدوي، وهو يعبر عن حزنه مستخدماً الدلالات الصوتية التي تنزاح من المعنى إلى الإيحاء. نلمس ذلك عندما يتحدث عن الإنسان العربي بلسان الآخر:

هو لا يدري إلا إيقاع الفطره

هذا الصوت الصحراوي اليابس لا يزهر شيء فيه.

نحن أمام نظرة الآخر للإنسان العربي، التي تحكمها السخرية ،ويغلفها الانتقاص.فالعربي في نظر الآخر لا يحسن شيئا ،ولايزال يحيا حياة البداوة، ولم يقترب منه ركب الحضارة بعد؛وهذا ما جعل الآخر يرى صوت العربي صوتاً جافا مصمتا لا فرق بينه وبين صوت الرياح في الصحراء القاحلة، فلا فرق إذن بين الصوت العربي والعدم؛ وهذا هو سبب حزن الشاعر الذي عبّر عنه الآخر في سلسلة استفهامات متتابعة عكست ضيق الشاعر و حزنه وألمه:

ماذا يمكن أن يعطي حرف الضاد الأبجر؟

ماذا يعطي حرف مجهور؟

ماذا يعطي وجه مقهور؟

أو مئذنة لا يسمعها إلا إنسان محنيّ العمر و مجبر

فإذا ما عافاه الله،غدا إنساناً يلقى في الناس الكرب..ويقهر؟

وهي استفهامات متتابعة تغلّفها الإيحاءات الصوتية الممزوجة بالبيئة مثل:

- الربط بين حرف الضاد والخيل من خلال المركب الوصفي في السطر الأول.

- الربط بين الصوت العالي والقهر في السطرين الثاني والثالث. فكان العرب-مع قهرهم لا يحسنون غير الكلام.

- الربط بين الشدّة والاتجاه إلى الله(صوت الأذان) فإذا ما زال الكرب استعاد الإنسان العربي ديدنه غير المحمود،ومارس القهر مرة أخرى.

ولم تقتصر نظرة بدوي الحزينة إلى الغراب على لونه فقط، ولكنها تمتد إلى صوته أيضاً عندما يربط بين ظلم الآخر للإنسان العربي،وقصة قابيل و هابيل والغراب التي يرى أنها تتكرر مرة أخرى في عصرنا الحديث. يقول:

ما زال بقرب الجثة صوت غراب

صوت قاس يدعو للدفن المرتاب

حتى لا تغدو الدنيا مثل الغاب

وذئابا تستلقي في أحضان ذئاب

.. لكن الجثة هذي المرة يا قابيل

نبتت في داخلها زهره

وستكبر تلك الزهره

وستشرق تلك الزهره..... إلخ

وينتقل بدوي في هذا المقطع من الخاص إلى العام عندما يربط بين حزنه والبشرية من خلال صوت الغراب القاسي الذي علّم الأخ كيف يدفن جثة أخيه، فيرى بدوي أن البشر جميعا سينقلبون ذئابا يقتل بعضها بعضا ما دامت هذه النظرة العنصرية موجودة، ولن يكون هناك ذئب أو حمل. فإن لم تتغير هذه النظرة،ستعم فوضى القتل و الصراع ولن يبقى في الدنيا غير النواح.

ولكن بدوي يرفض هذه الفوضى و يتمسك بأهداب التفاؤل،عندما جعل الزهور تنبت في جثة المقتول، والمقتول هنا ليس هابيلاً، ولكنه الإنسان العربي المقهور الذي يشرق الأمل من داخله،إشارة إلى تبدّل حاله، و زوال قهره.

ويبقى الهم العربي الشغل الشاغل لبدوي، عندما يتناول مأساة فلسطين، ويتحدث عن ضياع الخليل في إطار من

مدينة الخليل

الصوت الحزين، فيقول:

قلت في صوت حزين في مهانه
غطت الأصوات فوق الأسطوانه
.. هل سمعتم يا نشامى؟ضاعت اليوم الخليل
أصبح المسجد يا ويحي كنيساً
لا تقل لي أين طه؟
لا تقل لي أين عيسى؟
لا تعد أين البراءه؟
فالحمامات الوديعه
في ظلال المدفع الجبّار قد صارت جبانه
والذي يملكه المقهور في خوف .. بكاءه»!!

إن هذا المشهد يجمع بين الصوت و الحركة في إطار سردي يتماهى مع الحزن المسيطر على الشاعر في لحظة تذكرنا بمآسينا المتعددة، وإخفاقاتنا القومية و السياسية:

- صوت الراوي الحزين المغلّف بالمهانة؛ لأنه ينادي في صحراء حيث يضيع صوته في زحمة أصوات المتحدثين، الذين لا يجيدون الإنصات بقدر ما يشتهون الكلام لدرجة أنهم وضعوا الأسطوانة ولا يستمعون إليها.

- أصوات الأذان و أجراس الكنائس التي اختفت و حلّت محلها أصوات الشعائر اليهودية.

- صورة صوتية متناقضة تجمع بين هدير المدافع وأصوات الحمام،وهي ترمز إلى القضاء على السلام واغتيال كل جميل.

ولا يبقى في المشهد إلا صوت النحيب.. نحيب القهر والخوف ؛لأنه لا يستطيع أن يجهر ببكائه، فجاء صوته مخنوقاً يشبه حشرجة الموت.

ولا يرى بدوي في ضياع الخليل مجرد ضياع مدينة،بل يرى ضياع هوية العرب أجمعين،

والعرب مشغولون بالحديث عن قشرة الحضارة، وأجساد النساء. فيقول:

عدت للنوح بصوت مستجير
آخر الأنباء هذا اليوم قد ضاع الخليل
- وتوقعت العويل -
فالوجوه اليعربيه
جرفت بين السيول
و الظباء الغرّ راحت تتلاشى في الرحيل
أكملوا اليوم احتواءه»!

ونلاحظ أن حزن بدوي على ضياع اللغة العربية أو الثقافة العربية - ممثلة في الخليل (يعني الخليل بن أحمد الفراهيدي اللغوي الشهير) - يفوق حزنه على ضياع مدينة الخليل،وذلك من خلال الدلالة الصوتية للبكاء: ففي الأولى اكتفى بالتنبيه، بينما علا صوته بالبكاء في الأخرى، وكان يتوقّع أن يبكي معه الآخرون. فالرجل-كما يقول ابن منظور- (عندما ينوح يبكي حتى يستبكي غيره)، وهو ما عبّر عنه بدوي بقوله:

«وتوقعت العويل»

ولكن توقعه خاب و بقي الآخرون على ما هم فيه.

الدلالات الحركية

يرى الرومانسيون الطبيعة ميداناً فسيحا؛ لأنهم يرفضون القيود، ويؤمنون بالحرية و الانطلاق، فهم- كما يقول جان جاك روسو- (يرون في الطبيعة الأم الرءوم) ،كما يرونها خير تجسيد للحركة في الكون؛ بحكم استمراريتها وعدم سكونها، وتجددها الدائم· ولا تنفصل حالتهم الشعورية عن حركية الطبيعة، ونلمس ذلك عند عبده بدوي في قوله:

عجبت لهذا الدوح مالت غصونه

بغربان سود·· ما أشق وأفظعا

تظل طوال اليوم تزورّ جانبا

وتطلق صوتا ناعياً متقطعا

وتمشي كما يمشي اللئام بخسة

تقول لمن سار مع الحب·· ودّعا

فهذا المشهد -مع حركيته الغالبة- يجمع بين اللون و الصوت· وكلها تأتلف لتعبر عن حزن بدوي الذي يرى في الغراب-دائما- معادلاً موضوعيا للحزن بلونه الأسود وصوته المكروه، وكلاهما يقبض النفس، ويجلب التشاؤم·

أضاف بدوي إلى ذلك- في الصورة السابقة- حركة الغراب غير المريحة بما فيها من ازورار والتواء، لافرق بينها وبين حركة اللئيم الذي يسعى بين الناس بخسة، طمعاً في إفساد العلاقات الإنسانية،ويتمنى أن يفرق بين المحبين·

ويصور بدوي حزنه في مشهد طبيعي آخر، تغلفه المفارقة التصويرية؛ حيث فقدت الطبيعة حركتها تضامناً مع الشاعر في حزنه،فيقول:

جلست إلى شاطئ بعد جوله

وفي القلب همٌ وفي الروح صوله

فلا الورد من حوله شاقني

ولا النجم أبصر في الماء مثله

ولا موجةٌداعبت جبهتي

ولا الريح ألقت على الوجه خصله

·· رأى النهر هذا فمد اليدين

ودمدم فازدهرت شبه جمله

تقول: بأن الغريب الحزين

سيطرح ما اسطاع من قبل حمله»

انتقل حزن الشاعر في الصورة السابقة إلى الطبيعة فخرجت عن مألوف عادتها، وسكنت فكأن حركتها نابعة من سعادة بدوي، ومادام حزيناً فلم لا تتمرد الطبيعة وتسكن؟ فلا قيمة لرائحة الورد دون الاستمتاع بها، كما يفقد النجم ظله في الماء الساكن، وفقد الظل يعني العدم و الفناء · فلم يجد الشاعر بدا من الارتماء في أحضان الطبيعة، عندما ألقى بنفسه في النهر، وكأنه يغتسل ويتطهر من الهموم و الأحزان.

وقد ترتبط الدلالة الحركية بالشاعر نفسه، عندما ابتعد بدوي عن أسرته-معارا لجامعة الإمارات- تذكّر أسرته فقال:

فلمّا انتهينا للذي ظلّ صامتاً

وفي مقلتيه دمعة ليس تمسك

يتحدث عن نفسه بضمير الغائب،والدلالة نابعة من تلك الدمعة المنسابة،التي غالبته فغلبته؛لتبين عن حزن دفين وشوق مكين،وكأن حركة الدمعة تكثيف دلاليّ لمعاناة الشاعر ألم ابتعاده عن أسرته فأسلمته حركة الدمعة إلى حركة تالية، عبّر عنها في قوله:

تململ ثم انساب: لو كنت دوحة

لأدركني سعدٌ قديمٌ مفكّك

فنلحظ عدم الاستقرار في فعل الحركة (تململ) الذي يعني التقلب من المرض أو الغم -كما يقول ابن منظور-·

وبعد فقد كانت هذه «غَرْفَةُ حُزْنٍ» من بحر عبده بدوي،الذي عرفت فيه حب الحياة وتألمه منها دون أن يشكو· ولمست فيه حب الناس، في الوقت الذي أعرض عنه الناس وقد كان الجميع يخطب وده من قبل· ولا أنسى ما قاله لي أستاذي الدكتور يوسف نوفل ليلة عزاء الدكتور عبده بدوي: أين كل الذين كانوا يسعون إليه؟ والله لو جاء كل واحد نشر له عبده بدوي مقالة لضاقت القاعة بالمعزّين· و لا أنسى أن أول دواويني الشعرية قد ساعدني عبده بدوي على طباعته···)

هكذا يكون الوفاء من أستاذ لأستاذ في دنيا قلّ فيها الأوفياء،رحم الله أستاذي وصديقي الأستاذ الدكتور عبده بدوي الذي أحاطت كتاباته النقدية أدبنا العربي -قديماً وحديثا- كما أن أعماله الإبداعية(أصدرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب في ثلاثة مجلدات)-أرض بكر لطلاب البحث العلمي.■